التّفسير النصي والتّواصل من المنظور الهرمينوطيقي

د.تيرس هشام
أستاذ محاضر (قسم أ) بقسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللّغات والفنون
جامعة الجيلالي ليابس بسيدي بلعباس

إذا كانت معجزة التّواصل تكمن في أنّ مغزى التّجربة أو مضمونها ينتقل من معاينها إلى المتلّقي، فإنّ المدار في ذلك كلّه إنّما يكون على الوسيط الذي يسمح بمعايشتها ويخرجها من دائرة الأنا إلى الآخر، إنّه النّص الذي يثبّت التّجربة التّي في "حالة تخلّقها في تعبير موضوعيّ تتجاوز إطار ذاتيّتها، وذلك لأنّها تتجسّد من خلال أداة موضوعيّة هي اللّغة في حالة التّعبير الأدبيّ".[1]

إنّ الالتفات إلى التّجربة لا يعني إهمال الوسيط أو النّص من حيث هو بنيةٌ لغويّة، ولا يعني كذلك تتبّع مدى مطابقته لها، إذ لا تهمّ التّجربة إلاّ من حيث أنّ النّص ينقل مغزاها من الواحديّة إلى الآخريّة أي من حيث هو أداة للتّواصل، وإذا كان الأمر كذلك فإنّ التّجربة الواقعة لا تختلف كثيرا عن أيّة مواصفات أخرى تُنتج فيها مادّة التّدليل (النّص، اللّوحة ،....إلخ)، ولهذا "تتساوى عندريكـــور –من الوجهة الهيرمنيّوطيقيّة– النّصوص الأدبيّة والأساطير والأحلام، طالما أنّ هذين الأخيرين قد تجسّدا في شكل لغويّ".[2]

إنّ السّيرورة التّي تنتهي بتحقّق النّصّ في رموز كتابيّة أشبه ما تكون بالرّؤيا وسردها، وذلك إذا ماثلنا الرّؤيا (أي ما يراه النّائم)

بالتّجربة وسردُ صاحبها لها بالنّص، وعلى ذلك كان "إطلاق لفظ «حديث» على الحلم في سياق التّأويـــل يرجع إلى أنّ المفسّر أو المؤوّل لا يقوم بتأويل الحلم ذاته ، بل يقوم بتأويل « الحديث » الذي يقصّه صاحب الحلم عن حلمه، بمعنى أنّه يقوم بتأويل العبارات اللّغوية التّي يصوغ بها صاحب الحلم الصّور التّي رآها في النّوم، فيكون التّأويل هنا منصبّا على الصّور من خلال وسيط هـــو « الحديث »."[3]

أمّا النّص الأدبيّ فإنّه يستحيل أن يحيط بكلّ تفاصيل التّجربة وبكلّ المعطيات الفكريّة الّتي تصاحب عمليّة إنتاجه، ومع ذلك يظلّ به حدّ أدنى أمين ما يكفي لنقل التّجربة أو لنقل مغزاها إلى الآخر كي يعيد خبرتها من جديد، وفي إعادة الخبرة هذه تتمّ عمليّة التّواصل.

غير أنّ النّص وهو نظامٌ ثان يشتغل على اللّغة التي لا تقتصر على إيصال معطى قبليّ دون أن تحتويه في منظومتها؛ لا يكتفي بنقل مغزى تجربة أو نقل بعض تفاصيلها دون إخضاعها لنظامه الخاصّ، وإذا كان بعدَ تصرّفه فيها موجّها بالدّرجة الأولى إلى متلقّ، أي إلى قارئ، فإنّ قدرته على التأثير في الواقع الذي أوجد التّجربة، أي بمعنى ما الواقع الذي أنتجه تتجسّد هاهنا.

من المعلوم أن الواقع القبليّ الذي يخلق النّص يحوي أنماطا من التّفكير مختلفة وقيما متضاربة تتفاوت في الزّمان وفي المكان درجات شيوعها أو هيمنتها « فالواقع – أي واقع كان – يحتوي في بنائه الثّقافي نمطين من القيم: النّمط السّائد المسيطر، ونمط القيم النّقيض

الذي يكون ضعيفا خافت الصّوت، لكنّه يسعى لمناهضة نمط القيم السّائد»[4] ومن ثمّ فالنّصّ الذي لا يصدم النّمط السّائد من القيم –أيّا كانت – تكون قدرته على التّأثير أو التّغيير ضئيلة إن لم تكن منعدمة بعكس النّص الذي يكسر السّائد ويؤسّس لنمط جديد من التّفكير ومن القيم ومن الذّوق.

ولتوضيح الرّؤية، سنسعى إلى فحص هذه الفكرة من منظور القارئ الذي يشرع في قراءته وهو حائز على موسوعة قبليّة تشمل من ضمن ما تشمله المدار (الطّوبيك)، وعلى ذلك يناظر المدار المهيمن على فكر القارئ النّمط المسيطر من القيم، بالرّغم من وجود تخمينات تتّسع أو تضيق كلّما توغّل في القراءة، ونعطي على ذلك مثلا تجسيديّا بسيطا: ذكر قارئ فعلي (امبريقيّ) أنّه شرع في قراءة قصّة الرّجل الذي رافق السيّدة أمّ سلمة رضي الله عنها زوج الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من مكّة إلى المدينة زمن الهجرة، فهاله وهو يقرأ فضائله وخصاله وأهمّها الوفاء في مرافقة أمّ المؤمنين –رضي الله عنها – أن يكون قد مات على شركه (ولم يكن قد قرأ بعدُ بأنّه أسلم)، ومن ثمّ ازداد تطلّعا لمواصلة فعل القراءة والبحث حتّى انتهى إلى خبر إسلامه واستقرّ بذلك على دلالة ما، والشّاهد هنا أنّ مدار القارئ إنّما يكون كذلك نمطا سائدا من الأفكار حول النّصّ، وهي أفكار تُؤكَّد أو تُنفى حسب بنيته وما تقتضيه.

إنّ ما تقتضيه البنية يتجلّى من خلال التّعامل المحايث كما تقدّمه الحلقة الهيرمنيوطيقية عبر ثلاثيّتها: الفهم والتفسير والاستيعاب، فيكون التّفسير أنسبَ لمقاربة جوانيّة موضوعيّة تفحص بناء موضوعيّا لا ينحصر في قصد الكاتب كما لا ينفتح لأيّة قراءة كيفما كانت.

كما أنّ مرحلة التّفسير تُعدُّ خطوة أساسية تضمن انسجام الرّؤية الهيرمنيوطيقيّة وتحول دون إغراقها في الجانب الذّاتيّ، بل إنّها تُعَدُّ من منظور ما تحدّيا ترفعه الهيرمنيوطيقا لتعضيد مناهج العلوم الإنسانيّة (علوم الرّوح) في مواجهة نظيرتها في العلوم الدّقيقة، وقد أشار "ريكور" إلى أنّ التّفسير لم يعد "رهين العلوم الطبيعيّة وإنّما أصبح آليّة جامعة تنطبق على النّماذج الألسنيّة"[5].

إنّ هذا لا يعني أنّ وسم هذه المرحلة عند الهيرمنيوطيقين بمرحلة التّفسير البنيويّ أو بالمرحلة البنيويّة هو مصادرة للبنيويّة في مفهومها التّاريخي الصّارم الذي أفرزته لسانيّات العالم السّويسري" دوسوسير"، وإنّما البنيويّة تعني هنا الفحص المحايث الذي تفرضه هذه المرحلة على تتابع ما للعلامات (النّص)، مما يعلّق ولو بشكل مؤقت إشكاليّة المرجع أو الواقع.

غير أنّ التّفسير بوصفه نشاطا محايثا لا يتأسّس على القطيعة الجذريّة مع مرحلة الفهم القائم على التّحيّزات والتّصوّرات المسبقة، وإنّما تدخل المرحلتان في فعل تكاملي ّضمن نشاط القراءة"ذلك أنّ التّفسير، بوصفة تنضيدا وموافقة بين العلامات، أي باعتباره سميوطيقا،

إنّما يتشيّد على قاعدة من فهم ذي درجة أولى ينصبّ على الخطاب بوصفه فعلا غير قابل الانقسام وقادرا على التّجديد"[6] ويمكننا أنّ نتصوّر الفهم ضوء أبيض يخترق موشورا (مرحلة التّفسير البنيويّ) فتنتج عنه دلالات مختلفة في آخر مراحل القراءة (الاستيعاب):

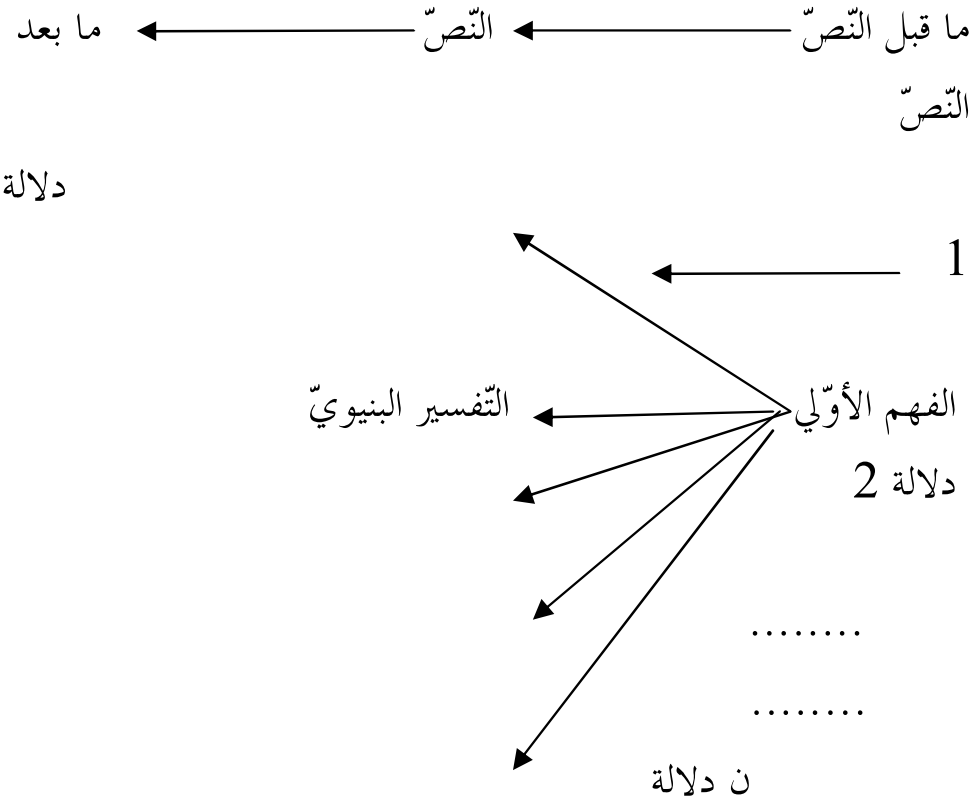

إنّ مرحلة التّفسير المحايث في القراءة الهيرمنيوطيقية لا بدّ أنّ تستند إلى مرجعيّة إجرائيّة تدعمها بآليّات الفحص الدّاخلي لبنى النّصّ دون أن تنحرف عن مسار القراءة العامّ الذي لا يبعد المرجع أو الماحول في تناوله لمادّة القراءة، ولعلّ أهمّ مبحث يحوز توفيقا لافتا بين سلطة المحايثة وتحدّي الخارج أو المرجع هو مبحث السّيميوطيقا في طروحاتها التّأويلية.

الإحالات:

– نصر حامد أبو زيد، إشكاليّات القراءة وآليّات التّأويل،المركز الثقافي العربي،بيروت/الدار البيضاء، ط4، 1996، ص 26 .[1]

– المرجع السّابق، ص 47 .[2]

– نصر حامد أبو زيد، مفهوم النّص (دراسة في علوم القرآن)، المركز الثقافي العربي،بيروت/الدار البيضاء،ط4، 1998، ص 227 .[3]

– المرجع السّابق، ص 60 .[4]

– محمّد شوقي الزّين، تأويلات وتفكيكات(فصول في الفكر الغربيّ المعاصر)، المركز الثّقافيّ العربيّ، بيروت/الدّار البيضاء، ط1، 2002، ص 69 .[5]

– بول ريكور، من النّص إلى الفعل،تر: محمّد برادة وحسان بورقية، مكتبة دار الأمان، المغرب، ط1، 2004، ص 17 .[6]